البحث عن محمود درويش في كردستان
أو البحث عن كردستان في محمود درويش

امتياز دياب *

كانت والدتي تجلس على مسطبتها أمام المطبخ، احتضنت كومة من عيدان الملوخية، وقطّمت أوراقها الناعمة. كانت والدتي تنصت لشقيقي وهو يقرأ كلمات الرثاء في محمود درويش بصوت عال. كنت قـد وصلـت الى قريتي المجاورة لقرية محمود (الجدَيْدي)، لكي أكتب عن حزن قرية الشـاعر الذي تحول كل من سمع به الى قريب له أو صديق أو زميل في مقعد الدراسة..

لم تكن لدي أية فكرة عما يمكن ان أكتبه، خاصة بعد لقائي مع والدة محمود، التي رددت بأنين وهي تلوح برأسها المثقل بأشياء، ليس بإمكاني التجول فيها « يا حبيبي يمه...يا حبيبي يمّه «.

قـرأ أخـي كلمات الرثاء التي كانت في غالبها تحمل رسـائل تحية لمن فقدناهم على مر سـنين من النضال (محمود .. سـلم على لوركا وقل له.....) أو (إن التقيت مع ياسر عرفات يا محمود فقل لـه.....) و(عندما تلتقي مع عشـتار يا محمود...) ، وفاجئتني أمـي عندما نفضت أوراق الملوخية عن حضنها غاضبة وقالت « هذا حرام ..حرام عليكم اتحملوا الميت رسائل، هو مش ساعي بريد».

نظـرت الى أمي بحب، وقلـت لنفسي أن معها حق، لن أذهب لأكتب رسـالة أخرى، تثقله بحملها، سأتركه يسير في الأبدية خفيف الحمل.

---

* كاتبة فلسطينية

مرّ عام عندما وصلت الى كردستان، وكنت انتظر على مصطبة جبلية، في بستان ماتت أشجاره، تماما أمــام جبل قنديل، وسرت بين فروع الأشــجار الميتــة التي لم تقو على حمــل الأوراق، بانتظار عودة صاحب مطعم صغير، لكي يعد لي وجبة غداء، وبما أنني كنت الزبون الوحيد في ذلك الأسبوع، لم يكن في المطعم ما يكفي لإعداد وجبة شواء، فذهب ليشتريها من لحام القرية المجاورة.

كانت الرياح، هي الشيء المتحرك الوحيد في الفضاء المنبسط بيني وبين جبال قنديل، لكنني سمعت صوت ورقة يتلاعب بها الهواء، بحثت عنها بنظري، ورأيتها من بعيد، سرت نحوها واقتربت، ووجدت انها بقايا ملصق لمحمود درويش..

وهناك بكيته لأول مرة، وبدأت أجده في كل قصة وحكاية في كردستان.

كويا ترحب بكم.

انطلق من ســيارة تمر أمامنا صوت عباس كماندي الكردي، يغني وينادي: ســنجانا.. ســنجانا. كانت السيارة تويوتا بيضاء، هامت بحملها لأثاث بيت بين الجبال، وكأنها تبحث عن مكان تفرشه فيه.

اختبأت الشــمس وراء غيمة، وامتدت الوهاد نحو كركوك المختبئة وراء جبال لا نراها. تعرّج جدول جفت مياهه، تخفف من حمله لكي يرسم حدود التلال التي اصطفت بعضها أمام بعض. بدأ يلوح في الأفق مزار لمقاتلي عمر بن الخطاب، وقد دوت صرخة من المغني شفان: «روجارو بوتشي آتوري»...

ارتفع صوت فرهاد ليطغى على غناء شــفان، وقال مشــيرًا إلى كويا : من هنا، من كويا المدينة خرج الفكر القومي الكردي، وهنا نشــأ جلال طالباني. بدت أراضي حمى آغا، رمادية، قاحلة من أشــجارها وقراها التي دُفنت بسكانها وبيوتها.. رمادًا بفعل الحرائق التي محت آثار أقدام (بشمرجة السهول) الذين اشتهروا بالدفاع، بعكس بشمرجة الجبال الذين اشتهروا بالهجوم.

ارتفع صوت المغني «تشاوتشيراي.. ري» تسارعت دقات الدف، ثم على إيقاعه صرخ المغني بشيء كالأووف، وصعــد الصوت وكأنــه لم يكن بحاجة إلى التقاط الأنفاس، مــع صعودنا على جبل التقط حمارٌ صغيرٌ حلمة أمه التي مالت برأسها على صغيرها بحنو كحنان جبل سارة على سهول حمى آغا.

لا باب يفتَحُهُ أمامي البحرُ

على أعلى نقطة وقفت، ومن تحتي امتدت بحيرة دوكان، ومن ورائها انتصبت أشــباح جبال تكللت

بالثلوج، وعلى يساري جبل كوسرت، وفي الأفق البعيد نرى شبح جبل قنديل الذي نزل منه بشمرجة الجبال واحتلوا مدينة رانية. هنا سـمعت صوتاً هاتفاً.. كان هذا صوت محمود درويش وهو واقف أمام البحر الميت، يصرخ « لا بابَ يفتَحُهُ أمامي البَحرُ»...

قال الملازم فؤاد مشـيرًا إلى جبل قنديل: «إلى هناك صعدت لكي ألتقط صورة لمحمود عثمان، وأعود إلى قاعـدتي مع مجموعة الصاعقة، لكي أثبت بأنه ما زال حيًا يرزق، مشـيت مدة أربعة عشرَ يومًا، كنت شابًا حين ذاك، كنت أغني في الطريق (أحن إلى خبز أمي) لكي أتسلى».

تركنا سارة لتنام في جبلها، وركبنا طريق سرجالوا، مكان انطلاق الثورة الأولى، على صدى صوت سالار ينشـد: «لا أريد مـن الحب غير البداية.. يرنو الحمام..» نام مجمع «بـيرا مجرون»، الذي حُشِرَ فيه سـكان القرى، التي كان يحرسها جبل سارة، ولم تملك سـارة حمايتها من الحريق الكبير، الذي التهم قرى بسكانها، فاضطجعت واستسلمت للنوم.

شاعر سكير

قـال طالب الموصلي: «كنا نحرق البيوت مع العشـاء، رأيت فتات الخبـز يحترق، واختلطت رائحته برائحة لحم الأمهات المحروق، كنت أحرقهم لأحمي نفسي من فيلق آخر يصوب فوهات بنادقه إلى صدري، كان خياري بين أن أشـم رائحة هذا اللحم الكردي المحروق، وبين رائحة هذا اللحم لجندي عراقي الذي أدى مصيره إلى شاعر وسكير، لا يجرؤ على البوح بهول ما فعل».

أنشد سالار الذي لم يعد قط إلى المكان الذي ناجى فيه حبيبته العراقية بعد أن تزوجت غيره:

حاقد على السماء..

حاقد على الأرض.. وعلى الزمان

لم أتمكن من وضع يدي في يد حبيبتي

كان يبكي، سالار، عندما صرخ فرهاد لمدينته سُليمانية، التي بدت في حضن الجبال:

لست نسيماً أهتز مع حركة الريح

أنا جبل الحقيقة العالي.. ثابت في مكاني

أجريم بوباخ مينحور...

سنرجع إلى مدينتنا

ونحمل مدينتنا

داتشينو...داتشينو

محمود درويش عربي؟

أفاقت مدينة السليمانية وجبالها ما زالت محتفظة بغطاء رقيق من الضباب، بدأ بالتبعثر مع زحف أشعة الشـمس، التي ما زالت مبتلة بأمطار تشرين. اغتسلت سطوح البنايات الإسمنتية التي بنيت على عجل بفضل قانون النفط مقابل الغذاء.

جلس فرهاد على طاولة مع رجلين، كان أحدهما يتصارع مع حبة برتقال، رفضت الاستسـلام لسكين غير ملائم لقشرة طرية وقديمة، كانوا يتحدثون عن قانون تعدد الزوجات الذي يشترط على الراغب في زوجة ثانية أن يثبت أن زوجته مريضة وغير قادرة على ممارسة حقوق الزوج أو أن تكون عاقراً.

انفجـرت البرتقالـة بين يـدي بختيار، وانتشر عصيرها عـلى يديه ووجهه وثيابـه، ولعن الفنادق في الشرق، التي تدعي أنها خمس نجوم وهي لا تساوي نجمتين في أوروبا، ثم نظر إلى كومة من الملاعق والشوك، وضعها أحد الخدم في وسط المائدة، وكأنها ذاهبة إلى التنظيف، وقال: أتوا بمدير من لبنان للفندق، ولكن ما أبعد مستوى الخدمة عن لبنان!

عرفني فرهاد على الرجلين في وسط الحديث، وكأني وصلت للتو.

انتهت أغنية على باب الله يا صنايعية، وتبعتها أغنية ريتا لمارسـيل خليفة. الرجل الثاني الذي عرف بنفسه، واسمه «سروة»، قال: هذه الأغنية من كلمات محمود درويش، هل تعرفينه؟

قلت : طبعاً أعرفه.

ثـم انطلـق سروة يحدثني بعينين حادتين صغيرتين، توسـطتا وجهًا نحيلاً: كنـت أعتقد أن محمود درويش كرديٌ. وعندما رأى نظراتي المندهشـة، قال: بدأت قراءة محمود درويش عندما كان عمري إثنا عشر عامًا، كان صعبًا علي فهم أن هناك من يعاني مثل الشـعب الكردي، فاعتقدت أنه تحدث عن عذاب الأكراد، وفي يوم، وعندما كان عمري ستة عشر عامًا، كنت في سوق الكتب في طهران، رأيت كتابًا عليه اسم محمود درويش، ولكن باللغة العربية، فسألت البائع، لماذا كتب على الكتاب باللغة

العربية؟ ، قال لي حينها، لأن محمود درويش عربي من فلسطين.

سكت سروة عن الحديث، ونظر في عيني وانتظر، ثم قال لي همسًا:

«بين ريتا وعيوني .. بندقية».

ثــم انحنى ليلتقط حقيبته، وأخــرج جريدة عليها صورة محمود درويش، فتحها بين يدين مرفوعتين لكي أرى بوضوح، ثم قال لي : هل تعرفين شيركو بيكس»؟ ودون أن ينتظر الإجابة، أردف: شيركو هو محمود درويش الأكراد، كتب هذه القصيدة في رثاء درويش.

وبحماس ترجم لي:

لماذا مات هذا النهر فجأة؟

لماذا اسودّ تل الزعتر هذا في طرفة عين؟

لماذا؟ سقطت قصيدة البدر المتلألئ

من سناء حيفا وغرقت في البحر واختفت؟

يا ترى.

ثم نظر نحو فرهاد، وقال : يمكن لفرهاد ترجمة الباقي لك أفضل مني.

لكنه تابع الترجمة :

من هنا

وعلى هذه الأرض المنكوبة لكردستان

من هنا

ومع تبرعم وتساقط أوراق شعرنا

من هنا

وفي هذه الأمسية من شهر أيلول

تذكرت محمود درويش.

الذي لا يحب أم كلثوم هو غبي القلب...

نظر فرهاد متسائلا : هل تريدين اللقاء مع شيركو بيكس ؟

التقيت كاكا شيركو بيكس مرتين، مرة في مكتبه، ومرة ثانية جاءني إلى الفندق لنذهب لتناول العشاء معًا.

مازحت شــيركو بيكس قائلة: عندما التقيتك في المرة الأولى، أهديتني قصيدة، ولم تكن تعرفني، هل كتبت لي قصيدة بعدما عرفتني ؟.

سحب من جيب سترته ورقتين، فتحتهما، وقرأت الجزء الأخير:

أكتب بورقة عُشب

فأقرأ غابة.

أرى قطرة مطر

فأسمع زمجرة بحر.

في كفي حبة قمح

وفي روحي بيادر.

أحمل شعرة من ضفيرة حبيبتي

وبجانبي المحبة

عندي بيت واحد من شعر نالي

وأملك كردستان كلها!

كان مطعم أبو سناء مزدحماً، عندما لمحوا شاعر كردستان، وقف معظمهم احتراماً، رفع يده بالتحية دون أن ينظر لأحد بشــكل خاص، تبعته رافعة يدي بالتحيــة وكأني نجمة مثله، ونظرت إلى الوجوه بــإصرار لا أدري كنهه، لم ألمح وجه امرأة واحدة. عندها لحقت به على عجل. وبسرعة البرق، جهزوا مائدة أنيقة، في ركن بعيد نوعاً ما، جلسنا على زاويتين متجاورتين.

نظر شيركو نحوي بعينين مبلولتين، وقال لي بعد أن لمس شارباً كان أشقر، أو صار أشقر:

«تحملني غيمة بيضاء، وتنقلني إلى الأنفال، وكنت أرى الفتيات والشــباب المطمورين تحت التراب، وأرى القمــر فوقهم، أرى عذابهــم حيًّا بلحمه ودمه، لم يصل ألم الأنفال إلى العالم العربي وكأنهم رأوا حلــماً عادياً، إن ألم مذبحة الأنفال لم يختلط بقلوب الآخرين». أشــعل كاكا شــيركو ســيجارة للمرة العاشرة في ظرف دقائق، ثم مال علي وهمس بشعر لمحمود درويش: «نسيت أنني قُتلت».

«كانت أمريكا تقول بأن الأنفال من صنع ايران، أمريكا عملت لصالحها، ومصلحتها مع صدام. أمريكا مـا زالت تعمل لمصلحتها».. «ملف القضية الكردية مفقود، أوباما مهم، لكن السياسـة الأمريكية لا تنظر في القضايا الإنسانية، سواء القضية الفلسطينية أو الكردية».

جـاء النـادل وغيرَ المنفضة بأخرى نظيفة، وأراد أن يملأ كأس كاكا شـيركو، لكن كاكا صرفه عن ذلك، فانسحب معتذراً.

وضع شيركو يده على يدي التي كانت تمسك بالقلم، وقال لا تكتبي، لم الكتابة؟ دعينا نقرض الشعر، لكنه أضاف: «هناك قضايا لم تحسـم بعد، مسـألة كركوك، كركوك هي قدس العراق، ومسـألة دولة كردية، كردسـتان ليست سـليمانية ودهوك وأربيل، بعد الحرب العالمية الأولى قسمت المناطق بين النفـوذ الفارسي والإنجليزي والتركي، كانت الموصل تابعة للدولة الكردية، وألحقت بالعراق قسراً، كل هذه التقسيمات تمت بإشراف عصبة الأمم».

ثم نظر شيركو نحوي متسائلاً: «لماذا يعتقد العرب أن كردستان جزء من العالم العربي؟»

لا ينتظر إجابتي ويسترسل.. «أنا لا أؤمن بالمقاومة المسلحة، أنا أؤمن بالحوار والتوافق، أنا مع الحوار الفلسـطيني الإسرائيـلي، يعيبون على الأكـراد علاقاتهم مع إسرائيل، بينما هـذه العلاقة لا يختلف مستواها عن العلاقة المصرية أو الأردنية مع إسرائيل! هل هذا حلال لهم وحرام علينا»؟

على صوت أم كلثوم أعطني حريتي أطلق يديًّا، إنني أعطيت ما استبقيت شيًا ، علت أصوات طربت لصرخة كوكب الشرق، استدار شيركو ونظر حوله مبتسماً، وقال: إن الذين لا يحبون أم كلثوم، ما هم إلا أغبياء القلوب.

انتظر شـيركو حتى خفتت الأنّات، وتابع: «المثقفون العرب يعتبرون الأكراد جزءاً من الوطن العربي، وهـذا فكر محدود، عشرون مليون كردي في تركيا، ثمانية ملايين كردي في إيران، ومليون في سـوريا، وأربعـة ملايين في العراق، أي أربعون مليون كردي، صدام وأد ودمر ودفن وذبح مئات الآلاف كانوا يعيشون في أربعة آلاف وخمس مائة قرية، دمرها، وحرق الجبال، حشر ما تبقى في مجمعات سماها بالمجمعات العصرية، كان عليه تسميتها، مجمعات قصرية، أين كان المثقف العربي حين ذاك؟ وأين هو الآن؟

اعتقدت بأن شـيركو بيكس سيتهاوى أمامي، أسـند ظهره على مقعده، وأنصت بأذنه نحوي، بحثت

عن شيء لأقوله، وأثناء بحثي، أسعفتني أم كلثوم:»واعرف حكايات، مليانة آهات.. ودموع وأنين».

أغمض عينيه، وكأنه يغفو، لكن وكأن شفتيه تمتمتا مع أم كلثوم.

ودون أن يفتح عينيه قال: العرب يعرفون لوركا، ولا يعرفون شـاعراً كردياً واحداً، لا يعرفون شـيئاً عن الفن الكردي .

ثـم فتـح عينيه، وقال، وكأنه ما زال يتمتم كلمات أغنية الأمل لأم كلثوم : جميع المآسي التي حصلت في منطقتنا تأتي من الأيديولوجية المتطرفة، الشـمولية، ولهذا لن نتوصل إلى أفق رحب، السـبب هو الفكر، وليس في الأشـكال الأخرى، في إيران يقولون كلنا إيرانيون، وفي العراق يقولون كلنا عراقيون، لكن هل هذه هي الحقيقة؟

صمت شـيركو، وأحرق سـيجارة بأكملها، قبل أن ينظر لي في عتاب، ويقول: قصائد الشـعراء الأكراد تتغنى بفلسطين وبمحمود درويش، أين كانت الأقلام المناضلة في مذبحة حلبشة؟ وهذه نقطة سوداء في تاريخهم، والسؤال: لماذا أنتم صامتون؟ والصمت للأديب والمثقف هو قبر.

قلت لشيركو مدافعة : محمود درويش كتب ليس للكردي إلا الريح.

ردّ شيركو : باللغة انتصرت على الهوية

قلت للكردي: باللغة انتقمت من الغياب.

فقال: لن أمضي إلى الصحراء.

قلت : ولا أنا....

ونظرت نحو الريح:

- عمت مساء

- عمت مساء!

اسـتدرك شـيركو بيكس: «ليس الجميع. سعدي يوسف، هادي العلوي، هناك الكثيرون الذين رفضوا الصمـت، لكن هناك الكثـيرون فضلوا الصمت، نزار قباني لم يكتب جملـة واحدة عن الجرائم التي ارتكبـت ضد الشـعب الكردي، أنا أيضًا أوجـه الانتقاد إلى الحكومة الكرديـة بأنها لم تترجم الأدب الكـردي إلى اللغة العربية». «لمـاذا أصبح الكردي أقرب للمثقف الألماني منـه إلى المثقف العربي»؟

سألني شيركو .. إلا أنه أجاب على سؤاله بنفسه: «في المهرجانات التي تقام في مصر، لا يدعون شاعرًا كرديًا واحدًا، حتى سليم بركات لم يدع، مع أنه كتب باللغة العربية، وهو كاتب رائع».

تذكرت ما كتبته الشاعرة الكردية آخين ولات: «محمود بركات وسليم درويش، هكذا كان يتحد هذان الرمزان لدينا كما عدالة القضيتين، الفلسطينية والكردية، وهكذا صرنا نقتدي بكتاباتهما مسحورين بعوالمهما التي لم تكن لتشبه عالمنا الصغير في شيءٍ سوى خيطٍ من الضوء، رفيع ومشرق، أفضى بنا إلى هذا الكائن العاصي الأليف الذي هو الشعر.

«يتذكر الكردي حين أزوره، غده..

فيبعده بمكنسة الغبار:

إليك عني، فالجبال هي الجبال

ويشرب الفودكا لكي يبقى الخيال

على الحياد: أنا المسافر في مجازي،

والكراكيّ الشقية إخوتي الحمقى.

وينفض عن هويته الظلال:

هويتي لغتي أنا، وأنا..

أنا لغتي. أنا المنفي في لغتي.

العمق الدرويشي الذي كتب به هذا المقطع، واستفحال الوجع الكردي فيه كان كافيًا أيضًا لإقناعي بأنْ لا يشعر بالوجع ويبدع في وصفه سوى أبناؤه البارون.

عن الشبه بينه وبين محمود درويش، يقول شيركو بيكس: «بقيت فترة قصيرة في أوروبا، لكن أنا مثله ترعرعت وكبرت في وطني قبل الهجرة إلى المنفى، أنا والدي شاعر مشهور، وكان في حياته يناضل من أجل إسقاط المعاهدة العراقية البريطانية، شرد وسجن ومات وهو شاب، كان عمري سبع أو ثماني سنوات، وتربيت ونشأت على يد النساء، أمي هي البطلة الرئيسة في حياتي، كانت جريئة، تحرص على حياتنا وتحوم حول أبنائها للحفاظ عليهم. وتعلمت من عرق جبينها وأنهيت ثانوية الصناعة، كانت أول مهنة مارستها، مهنة معلم في إحدى القرى القريبة من السليمانية، وبعدها في مصانع ومعامل ودوائر، وعشت في محلة المسيحيين. وكانت القصيدة الأولى التي كتبتها عن قصة حب طبعًا

وأول قصة حب كانت مع فتاة مسيحية، وآخر قصة حب مع فلسطينية».

فــرغ المطعم من زبائنه، لم يكن في المطعم ســوى أم كلثوم التي قالت:» ربمــا تجمعنا أقدارنا ذات يوم...بعد أن عز اللقاء.. وإذا أنكر خلّ خلَّهُ....»

قال شيركو وهو ينهض : ربما هناك.. في كل بلد محمود درويش آخر، محمود درويش كردي.

في لقــاء صحــافي كنت قد أجريته مع شــيركو بيكس، قال: «محمود درويش كان مع كردســتان، مع شعب كردستان، له موقفان مهمان.. في أواخر الستينات كتب قصيدة إلى كردستان، لكن حين طبعت مؤلفاتــه الكاملة، ما كانت القصيــدة موجودة في المجموعة، فكان عندنــا عتاب على محمود، لكن بعدين قال.. لها علاقة بالمخابرات السورية، وهم شالو القصيدة من المجموعة الكاملة. ثاني مرة طلع بموقف جيد حين كتب ليس للكردي إلا الريح، وهي قصيدة مشهورة وقدمها هدية إلى سليم بركات. محمود درويش يختلف عن الآخرين، في شــاعريته .. في صدقه، وبصراحة هو مو بس شاعر الشعب الفلسطيني، يعني هو شاعر الإنسانية».

في قصيدة كردستان، يقول محمود درويش: معكم/ معكم قلوب الناس/ لو طارت قذائف في الجبال/ معكم عيون الناس/ فوق الشــمس تمشي لا تبالي/ معكم عبير الأرض/ من خصر المحيط إلى الشمال/ معكم أنا... أمي... أبي/ وزيتوني وعطر البرتقال/ معكم عواطفنا... قصائدنا/ جنود في القتال...»

وعندما توفي محمود درويش كتب شــيركو بيكس في رثائه قصيدته «مات قمر وندبته جميع أشــعار الدنيا» :

أخي!

كيف حالك؟

أنا «سرحان»

ألا تشرب معي قهوة

في منتصف هذه الليلة

وفي مقهى الغربة هذا؟

حمامة بيضاء منهكة كقلبه،

تحمل في منقارها عود شِعرٍ أخضرٍ،
أتت محلقة من بساتين «بني عامر»
وتريد أن تحط على تابوتٍ في «رام الله»
هذه هي المرة الأولى التي لا ينهض فيها من أجل حب الحمائم
إنها المرة الأولى التي لا تستطيع ابتسامة الشعر أن تحول وجهه إلى بحيرة المساء
إنها المرة الأولى التي يستلقي فيها بلا مبالاة
ولا ينهض فيها بطول قامته من أجل العشق المجنون للوطن
إنها المرة الأولى التي لا يتحدث فيها عندما تتكلم الحرية
إنها المرة الأولى التي لا يمد فيها يده إلى نظارته
والمرة الأولى التي لا يحمل فيها القلم!

تأثر الكثير من الشعراء الأكراد بمحمود درويش، الشاعر الكردي السوري حسين حبش: «كلما ذُكر اسم محمود درويش أمامي عبقت رائحة الورد في كلِّ مكان، وانتعشت المخيلة بالعطر وذكريات الطفولة... حين كنا نقرأ في ذلك الوقت لمحمود درويش، كنا نجد في طيَّات حروفه هذا الشبه الكبير بين مأساته ومأساتنا، ألمه وألمنا، معاناته ومعاناتنا، قضيته وقضيتنا، فلسطينه وكردستاننا.. لذلك أحببناه بعمق، شاعرًا متمرّدًا ثوريًا مناضلًا مقاومًا وعاشقًا لشعبه ووطنه. أحببناه أخًا وصديقًا كبيرًا، نقرأ له بحماس منقطع النظير، نتابع حواراته، ونتقصى أخباره من هنا وهناك».

عندما تحترق الفراشة في كردستان

وقفت بنت كردية، تحت ضوء القمر الذي اتكأ على كتف جبل، ولوّن أكواخ القرية البريئة. أشعلت عود الثقاب، التهم ثوبها الكردي المبلول بالنفط.

رفرفت طائرة ورقية فوق اللهب، اختطفت روح الجميلة الكردية، وناولتها هدية للقمر، الذي اشتد ضوءه وتحول إلى شمس، أيقظ سكان الأكواخ الذين تركوا براءتهم في مخادعهم.
وسألوا ما الخبر؟
قال الأب: تمرد قلبها عليها.

قالت الأم: أراد لنفسه بنتًا مثلها، فقدمها مهرًا لأب مثله.

قال الحبيب: الموت لا يعني لنا شيئًا. نكون فلا يكون.

قال الأب: النسيان ضروري لذاكرة المكان.

قال الحبيب: الموت لا يعني لنا شيئًا، يكون فلا نكون.

هذا ما فهمته من فيلم كتبه وأخرجه المخرج هالكاوت، كردي من بغداد، يتنفس شعرًا.

«ازدادت حــوادث الانتحار بين الصبايا الكرديات، ومــا أن يهرعوا لمنعها من تمرد قلبها عليها، أو من مقايضتهــا مقابل صبية مثلها، لمتعة والدي الصبيتين، حتى يشــتعل عــودا ثقاب في ثوبيهما. ويبقى الحبيب ليحكي قصة الموت على طريقة محمود درويش».

عاد هالكاوت من المنفى، ليحكي في أفلامه قصة موت آخر، لا وقت لأحد ليحكيه للآخرين، ولا مجال في النشرات الإخبارية لهذا النوع من الموت في العراق. رنا هالكاوت نحو شاب وشابة جلسا في إحدى زوايا المقهى، تشابكت يداهما تحت الطاولة على عجل، بحثت الصغيرة بعينيها لتتأكد بأن أحداً لم يلتقط تلك اللحظة العجولة. لم تلحظ هالكاوت الذي ســارع ليلتفت نحــوي قائلاً:»يخافان الفرح». نظرت بدوري متلصلصة على لحظة حبّ، تعلقت بين وجهين هائمين على صوت غناء جاف تارة تصاحبها قيثارة:

يا ران، دوس يارن بيدِ يّا... يا نو نازارام بي نيشان .....

يا حبي الجميل، يا حبيب الروح

أحلامي في الليل لا ترتاح دونك

عندما أفكر بك أنوح مرّة أخرى..

تنهــد هالكاوت، وحول نظراته نحو جبل أُزمر، وقــال فجأة:»أحن إلى قهوة أمي.. في صباح بغدادي عادي».

عندما كتبت هذه السطور مما استذكرته مع هالكاوت، جاءني خبر وفاة والدته في بغداد.

شوانَدي لدرواري هوشم أديت

تأتين في الليل.. و

تطرقين باب إحساسي

أنشــد كِلْبا على جيتاره حزينًا على فراق حبيبته، عندما كنّا نســير على طريق دوكان، بمحاذاة جبل

بيراماجرون. عبرنا أمام قلعة ســوسي، التي حولها الأمريكان إلى سجن، هرب منها سبعة أشخاص، ولم يجدوا مكانًا للاختباء، في السهول التي ترامت حول القلعة عند أقدام جبل سارة، ماتت قرى السهول التي سكنت هنا حرقًا.

وغنى شيركو لهذه السهول:

إنها قصيدة ترتدي الحداد في تابوت ابنها، وتنام.

من جنين إلى سارة

تململت ســارة في مضجعها، وتدحرجت منها دمعة لدى ســماعها موسيقى دركو، الذي انَّت جيتارته بلحن فردي، وشجا صوته باكياً، يقول :

كلما قصرت المسافة نحو سارة، كلما انتفض القلب خشوعاً لذلك الحب الذي اندفن عند أقدامك.. سارة.

دارت الطريق بعد قمة ســارة، وتغير المشــهد، حيث جلست تلال وكأنها ملفوفة بعضها حول بعض طلباً للدفء. ثم حاذينا جبل كوسرت، الذي سبقنا إلى قمته متسلقاً صوت شفان:

ايه يا فرات أي فرات

سر كما أريدك

اجر كما أريدك

أنت تريد الحرية مثلي.

عندما وصلنا إلى خلكان، تسارعت أصابع شفان على البُزُق، وقال:

وايلي مي .. وايلي مي.. وايلي مي

دابرارابن.. دابرونن

انهضوا.. تقدموا

سارفراسكن..راي ازداي

ارفعوا راية الحرية.

فتــح جبل جناروك ذراعيه، وكأنه يريد حماية جبل هيبت ســلطان الــذي التحم بظهره تمامًا. وقف

جنــين في حديقة المطعم، التي أشرفت مصطبتها على مدينة رانية عند أقدام جبل قنديل. لم يكن في المطعم أحد، وكأنه مهجور، جلســت وجنين على طاولة في طرف المصطبة، ســألني جنين بعد الكثير من الصمت، لماذا أردت لقائي؟ قلت له وأنا شاخصة بنظري إلى قمة قنديل: لكي أسألك، لماذا سموك جنين؟ نظر جنين نحو الجرف الذي يفصلنا عن قنديل، وبصوت طيب، قال: كان أبي جندياً في الجيش العراقي، ذهب مع الجيش العراقي إلى فلســطين عــام ١٩٤٨، كان في جنين عندما وصلته برقية من أربيل تبشره بخبر مولدي، وأرسل لهم بان يطلقوا علي اسم جنين، إحياء لذكرى تحرير المدينة. صمت جنــين، واعتقدت أنه ســينهض ثم يذهب، ثم بحث في جيبه قليــلاً، أخرج هاتفه المحمول، وتحدث بالتركمانية، وعندما رآني انظر إليه متســائلة، قال لي دون أن يضع يده على السماعة، هذه ابنتي، ثم عاد للحديث بالتركمانية، دقيقة وأغلق هاتفه وهو يقول: ممنون.

يا أخي الثائر، ردد جنين: أخي الثائر، قصيدة محمود درويش التي مدح فيها الأكراد.

ســألت جنين عن ســبب حديثه باللهجة التركمانية وليس بالكردية، قال بابتســامة طردت عشرات الســنين من ســنين عمره الســتين: أنا كردي متزوج من تركمانية، عندما اجتمع مع أبناء عمومتي، نجلس ولا نجد لغة توحدنا جميعاً، منهم من لا يعرف الكردية، أو لا يعرف العربية ويتحدث بلهجة آشورية. كانت دراستنا باللغة العربية، وبالكردي السرياني، الآن يستعملون فقط اللغة الكردية، لكن مع مصطلحات لاتينية.

شكرا لياسر عرفات

دقــق جنين النظر في أوراقي، وتردد لحظة قبل أن يقول: شــكراً لياسر عرفــات. وعندما لاحظ أنني لم أفهم عما يتحدث، قال: ياسر عرفات، هو الذي رفض مناقشــة مشروع ترحيل الأكراد، وإرســالهم إلى الســودان، كان ذلــك ربمــا في القمة العربية الثانيــة، قال ياسر عرفات لا نريد مناصرة الشــعب الفلسطيني وتدمير شعب آخر. أنا عرفت ذلك لأنني كنت أعمل في وزارة الإعلام، لكنني تقاعدت في عام ١٩٨٥، بعدها طورت الإذاعة وتلفزيون المستقبل في كردستان، بمساعدات من فلسطين.

وقــف جنين منهياً اللقاء، وقال: يجــب أن أعود للبيت الآن، مشى عدة خطوات ثم عاد، وقال: حرام ما يحدث للفلســطيني في العــراق، حرام أن يتشردوا الآن في الصحراء، كان صدام يســتعملهم، أكثر مــما خدموه، الأكراد اســتفادوا من علاقاتهم مع الثورة الفلســطينية، جميعهــم تدرب هناك، وعن طريقهم كانت تأتي الأموال إلى بشمرجة الجبال، حرام ما يحدث لهم الآن. على الحكومة الكردية أن

تستضيفهم في كردستان، لكي تشكر ياسر عرفات، على ..الأقل.
صنعوا خرافتهم كما شاءوا، وشادوا للحصى ألقَ الطيور
وكلما مرّوا بنهر... مزّقوهُ، وأحرقوهُ، من الحنين..
وكلمّا مرّوا بسوسنة بكوا وتساءلوا: هل نحن شعب أم نبيذٌ
للقرابين الجديدة؟

نحن والقمر جيران..

رواندوز، مصيف رواندوز، مقابل جبل كوراك، ومن ورائه على مدى البصر جبل حساروست، وخلف كركوك شلال بيخال، نزل كامران حافي القدمين، ورقص تحت المطر، ونظر إليه رومان وفرهاد سعيدين بسعادته الطفولية، توقف كامران عن الرقص فجأة وهرع إلى آلة التصوير، ووضع عدسة هائلة الطول، أسند العدسة على كتف رومان وكأنها آر بي جيه، وبدأ بتصوير القمر، الذي اعتلى نهاية الجرف المطل على طريق هاملتون، الطريق القديم لهاملتون. كان فرهاد يشير بيده إلى كل الجهات، وكأنه لا يريدني أن أغفل عن أي بقعة من جباله التي عشقها، وسكن قممها والده، عندما كان مع البشمرجة، مجموعة جلال طالباني.

اقترح رومان أن نقضي ليلة أخرى في رواندوز. تدفقت القصص من فم فرهاد، أحيانًا أتابعه، وأحيانًا لا أملك ذلك، أسمعه يقول ونحن على حافة خطرة: هنا قتل سعد عبد الله، أول شهداء سوران، من مجموعة البارازانيين الذين يتعممون بالعمامة الحمراء. يترك مقود السيارة ليتأكد من أنني نظرت إلى الاتجاه الصحيح، وأنا أصاب بالدوار، لم ينتبه على لوني المصفر تمامًا، وذلك لدواعي سروره باهتمامي بجمال الجبال.

أما عندما قلت له بأن جبال كردستان هي أجمل من جبال سويسرا، وكنت صادقة في ذلك، عندما شرحت له بأن جبال سويسرا هي حقاً أجمل بقاع الأرض، لكن إذا سكنتها، أو جلست مقابلها، تنسى أنها موجودة بعد فترة، لأنها مثل الجميلة الصامتة، بينما هذه الجبال بامكاني الاستماع إلى أنفاسها، وكأني نمت ليلة على الشاطئ، وصوت الأمواج يهدهدني، وهذه الجبال لها صوت هدير البحر. قال لي بكل صدق: «أنت مثل الوطن».

ثم تابع محاولاً ألا يهول الأمور، لكن صوته خانه، وعلا صوته قليلاً، وكأنه الناطق باسم جبال كردستان:»على

هذه الجبال السـاحرة، على هذه الجبال القاسـية ببردها بوعورتها، وشلالاتها المتجمدة، وثلجها المتجلد، شرد ثلاثة ملايين إنسـان، تركوا المدن لتسـكنها الأشـباح، صعدوا الجبال، بعد احتلال قصير للبشـمرجة للمدن الكردية، الذين استغلوا حالة الوهن التي أصيب بها جيش صدام، بعد فشله في احتلال الكويت. جاء انتقام صدام، دموياً، وسقط عشرات الآلاف، من الجوع، من البرد، من المرض، من الكيماوي».

دون أن يتوقف لأخذ أنفاسـه اسـتطرد فرهاد: «اسـتمر العذاب والخوف حتى معركة كوري، على مضيـق كوري، وانهزم صدام وأوقفت دباباته». سـكت فرهاد عن الكلام، وأدار لي ظهره، ونظر نحو طريـق الآلام، طريق هاملتون، وقال بصـوت خفيض، لكنه واضح:» أنا حبة القمح التي ماتت.. لكي تخضر ثانية، وفي موتي حياة ما». ثم زفر مرة أخرى، وقال:

وأنت تعود إلى البيت بيتك..فكر بغيرك

وأنت تعود إلى البيت بيتك..فكر بغيرك

«أنا فكرت في فلسطين عندما كنت عائداً إلى البيت»

ركض القمر وراءنا، اختفى أحيانًا وراء غيمة مبعثرة، صدح صوت هاشري متأوهًا:

لا أريد من الحب غير البداية

يغفو الحمام..

بدا شـبح مجمع بيرا مجرون، ينظر إلى جبل سـارة التي احترقت في المنام، عندما غنى عزيز: أجريم بوباخ منجور.. أبكي على حظي. وتلاعبت الرياح مع أنفاس الجبال، التي خلت سماؤها من العصافير، مرّت سـحلية تائهة، نظرت قليلاً نحو المنحدر، ثم اختفـت في ثقب، لم يرغب أحد بإزعاج الصمت، وسارت السيارة بهدوء نحو المنحدر.

جيفارا يلعب الكرة

في مطعـم مظلم في مدينة أربيل، خلا من النسـاء، كان الزبائن يتحدثون همسـاً، كما هو الحال في جميع أنحاء كردسـتان، اعتقدت في البداية أن سـمعي قد خف في هذه البلاد، ولكن حين سمعتهم يردون على كل سؤال أسأله بهشش، انتبهت بأن هذا يعني أنني تحدثت بصوت أعلى من المسموح به في كردسـتان. قال زهير وهو عراقي بصوت أعلى من صوت رامون يرد على تذمره من فقر طلابه للمعلومات العامة، حتى أنهم يعتقدون بأن تشيه جيفارا لاعب كرة : قل لهم بأنه المُلّة بتاع جماعة

الصدر، انفجر الجميع ضاحكين، لفتت قهقهاتهم أنظار الجالسين في المطعم. سارع رامون بإطلاق الهشهشة مرّة أخرى، وقال: غريب بأنهم لا يعرفون تشيه جيفارا، ولكنهم يعرفون محمود درويش! ربما هذا يعود لأن شعار المقاومة الكردية هو الأدب الفلسطيني، الشباب هنا لا يعرفون الشعر الجاهلي، بينما الجميع يعرفون محمود درويش ومارسيل خليفة.

قال زهير: معاناة الفدائي الكردي شابهت حياة الفدائي الفلسطيني، الفرق بينهما، هو أن معاناة الفلسطيني كانت في الساحل، بينما معاناة الكردي كانت في الجبال. التقط د. علاء الحديث: بين أربيل وسليمانية يوجد فلسطينيون، قال كاكا مسعود البارازاني، بأن أي فلسطيني هو ضيفي. كنت يوماً في بيت عبد الرازق، سمعت ابنه يدندن بأغنية «أحن إلى خبز أمي»، فسألته: هل تعرف مارسيل خليفة؟ فقال لي لدي جميع أغانيه وغنى لي «أنا عربي»، أنا هنا أعامل باحترام أكثر من أي بلد عربي ذهبت إليه في حياتي.

مال علي د.علاء، وهمس: أرجو ان لا تذكري اسمي، أنا هارب من بغداد، بعد أن قتل زملائي الأطباء، وكنت آخر من هرب، أتاني شخص ونصحني بترك بغداد، لأن ميليشيات الشيعة تبحث عن الأطباء، وأنا فلسطيني، فهربت ولم يبق فلسطيني واحد في بغداد، الميليشيات الشيعية حولت الهوية الفلسطينية إلى جريمة، في كردستان العراق الحال مختلف، عندما يستقبل مام جلال السفراء العرب، ويصل دور الفلسطيني بالسلام، يقول له: «أنا كنت فدائيًا فلسطينيًا».

سألني رامون: «هل تعرفين بأن صلاح الدين كان كرديًا»؟.

ثم أنشد بهمس:

هل خرَّ مهرك يا صلاح الدين..هل هوت البيارق

هل صار سيفك..صار مارق

ونقول فلتحيا العروبة

مري إذاً في أرض كردستان

مري يا عروبة

الأمير رستي

جلس آغا رستي أمير عشيرة بالاك، على كنبة في غاية الأناقة ببساطتها، في غرفة تشبه في أثاثها

مطعمًا في موسكو الشيوعية، لكن في بيت رئيس البرلمان الكردستاني. تعمم روستي بكوفية فلسطينية بشـمرجية، حجبت جبهته، وأظهرت عينين حادتين لمعتا ببريق ساهم بإضاءة غرفة الجلوس شاحبة الضوء، حمل في يده سـبحة خضراء بلون زيت الزيتون الطازج، بيد حملت تجاعيد ثمانين عاماً على أقل تقدير، وتمنطق بزنار عريض لفه بأناقة حول خصره النحيل.

رطن بالكردية مع عماد المفتي رئيس البرلمان، الذي لم يخف ابتسـامة لا تتناسـب وتعابيره الجدية، سـألت فرهاد عن موضـوع المحادثة؟ قال فرهاد وهو يبتسـم: «يتحدثون عن حـق المرأة بطلب الطلاق، في حال تزوج زوجها بامرأة أخرى، في ظل القانون الجديد.

سألته: ولماذا يهتم الأمير روستي بهذا الموضوع؟

فرهاد: لأنه يريد الزواج من امرأة ثانية، وهو يقول إن زوجته مريضة.

وسـألت فرهاد أن يسأل روسـتي ، أية امرأة ستقبل بالزواج من رجل دخل العقد التاسع من عمره، وهل هو قادر جسدياً على ذلك؟

رطن فرهاد بالكردية مع روسـتي قليلاً، ثم قال لي: يعرض عليك الزواج، ومهرك بستان مليء بأشجار الفاكهة.

سـألته: وهل يحق لي الزواج من رجل ثاني في ذات الوقت؟ ضحك روسـتي متجاهلاً سـؤالي، وقال : مكانك هنا، انهضي معي إلى البيت، وإن كنت زوجة لا تقوم بواجبها نحو زوجها، سأتركك.

قلت له : ألا يعطيني مهلة للتفكير؟

قال روسـتي: على النساء أن يدعن التفكير . ذهب روسـتي مع أبنائه الذين ضحكوا من قلب رائق على والدهم الذي طلب يد ضيفة الشخص الذي كان وراء قانون منع تعدد الزوجات، عدنان المفتي.

الموساد !!

جلسـت مقابل عدنان، وسـألته عن علاقة كردسـتان بإسرائيل، وإذا ما كانوا يعتقدون أن الطريق إلى أمريـكا هي عبر إسرائيل؟ اختفت الابتسـامة عن ملامح عدنان الجدية، وقال تاركاً سـبحته من يده، وكأن جدية الجواب لا تحتمل التسـبيح: لا توجد علاقـة كردية مع إسرائيل بذات قوة العلاقة

الموجــودة مع مصر أو الأردن. دخــل طبيبان اسرائيليان الأراضي الكردية بعد مذبحة الأنفال، وواحد منهم طبيب أسنان، دخلا في حين لم تأت مساعدة عربية واحدة، ماذا نقول لهم: نحن لسنا بحاجة؟ ونحن نموت؟

دون أن يتخــلى عن همســه، الــذي اضطرني أن أغير مــكاني وأجلس إلى جانبــه في ذات الكنبة، تابع: انقطعــت العلاقــة العربية مع الأكراد بعد عبد الناصر الذي افتتــح إذاعة كردية في مصر، عبد الناصر التقــى طالبــاني، ومن خلال علاقات عبد النــاصر ذهب إلى بيروت، لكن دعم العــرب للحركة البعثية أجهــض هذا التقارب، وانقســمت الحركة الكردية، لا توجد علاقة اسرائيليــة كردية، الإسرائيليون ربما يدخلون إلى كردستان، مثلما يدخلون الدول العربية، لكن اتحداك أن تجدي إسرائيلياً رسمياً واحداً في كردستان، وأنا لم ألتق في حياتي مع إسرائيلي واحد، لكن التقيت مع ياسر عرفات في منتصف الثمانينات في برلين الشرقية قبل سقوطها بأربعين يومًا، وكان محمود درويش حاضراً في الاجتماع، ومحمود عثمان، طلبنا من ياسر عرفات التدخل وأن يرى مع صدام إذا ما كان هناك طريق للحوار، قال عرفات بالحرف الواحد: هذا متعجرف ومغرور جداً، ومع ذلك ســأحاول، وبالفعل ذهب إلى بغداد، وأرســل لنا رسالة قــال فيها : كما قلت لكم، في لقائنا الغرور هي اللغة الســائدة . ثم بحدة تجاوزت الهمس، قال عماد المفتــي: ليس لنا أصدقاء بــين العرب، والأكراد بحاجة إلى أصدقاء، لم يبق لنا عند العرب ســوى بعض الشعراء، سميح القاسم صديق الشعب الكردي، هناك قواسم مشتركة بين العرب والأكراد.

يا أخي لم لا تنهض؟

دعاني آغا إلى حفل لتسليم جائزة أفضل فندق وأفضل مطعم في كردستان. كان مكان الاحتفال، على بقعة ناصعة الاخضرار، لا يتناسب اخضرارها والجبال الرمادية المحيطة بها، وكأن الحشيش زرع على عجل لهذه المناســبة، انتشرت موائد مع كراسٍ بلاستيكية بيضاء، جلس حول الطاولات رجالٌ تتوسط وجوههم شــوارب كثة، وصلت بين حافتي شفاههم.على المنصة المرتفعة، حجلت راقصات بفساتين فســفورية خضراء أمام شــباب تمنطقوا بزنانير رمادية، على سراويل الرانكوســوار، واعتمروا كوفيات الفدائي الفلسطيني وفدائيي البشمرجة.

بعــد التصفيق، زعق رجل في الميكرفون بالكردية، ثم فجأة زعق بالعربية: كتب محمود درويش عن الطفل الفلســطيني في كردســتان، وعن الطفل الكردي في فلســطين ،.... وقفت منتصبة أبحث عن محمود درويش، بين الناس، ثم على منحدرات الجبال، ثم بحثت على قمة جبل سفين، وبدأت أسمع كلمات لم أفهمها، لكنها ترعد في صدري:

هايلي فرمانه...هوار
ثم صوت بكاء وأنين يسكن الأحشاء
ويلولو ويلولو .
ولول شفان على أوتار السهول المُقتلعة أشجارها وجبالها المُحترقة والموؤود أهلها :
فرمالي هوار هوار هوار.
وتركت كويا تتنهد ببيوتها المطلية بالطين
وهمست مستجدية:
جاني ..جاني.
عاد صدى الصوت ليهوي أمام هيبة سلطان
وصهلت الرياح على أوتار شفان.
تركت سارة نائمة، وفي حضنها أطفال تلفعوا في الصمت
وآباء في انتظار.. على صخور كورَك
وأمهات يشهقن في عويل مبحوح
وأشجار على سفر
وأنهر تبحث عن الغرق
وبحر غير موجود
ومحمود درويش
ينادي عليه شيركو بيكس: يا أخي!

ليس بعيداً عن «سجّل أنا عربي»، كتب محمود درويش قصيدته، إلى كردستان، لم يكن الأمر صدفة، ولم يكن الخيار عابرًا، كانت تلك إشـارة نحو طريق سـيذهب بها درويش بعيدًا وفريدًا، في انحيازه للقضايا الإنسـانية العادلة، نقيًا من الازدواجيات، فما يبدأ في فلسـطين يمرّ على جبال كردستان، ولا ينتهي في مرافعة الهندي الأحمر العابرة للزمن، عن قضيته مع الرجل الأبيض.

ليسـت قصيدة كردستان مدرجة في دواوينه، وربما أنها ليست مسـلّحة بجماليات محمود درويش السـامقة التي طوّرها فيما بعد، كما أنها غير معروفة عربيًا، لكنها قصيدة منقوشـة عميقًا عميقًا في قلوب الأكراد في كلّ مكان، القصيدة التي أضافوا إليها بفرح قصيدة « ليس للكردي إلا الريح» المهداة لسليم بركات، التي ندرجها هنا بعد مقاطع من قصيدة «كردستان»

كردستان

قصيدة: محمود درويش، ١٩٦٣

١

معكم
معكم قلوب الناس
لو طارت قذائف في الجبال
معكم عيون الناس
فوق الشوك تمشي.. لا تبالي
معكم عبيد الأرض
من خصر المحيط إلى الشمال
معكم أنا .. معكم أبي .. أمي
وزيتوني وعطر البرتقال
معكم عواطفنا.. قصائدنا
جنوداً في القتال
يا حارسين الشمس.. من أصفاد أشباه الرجال
ما مزقتنا الريح.. إن نضال أمتكم نضالي
إن خرّ منكم فارس .. شدت على عنقي حبالي

٢

تحيا العروبة
هل خر مهرك يا صلاح الدين؟
هل هوت البيارق؟
هل صار سيفك.. صار مارق؟
من أرض كردستان
حيث الرعب يسهر والحرائق
«الموت للعمال إن قالوا
لنا ثمن العذاب

الموت للزراع إن قالوا
لنا ثمر التراب
الموت للأطفال إن قالوا
لنا نور الكتاب
الموت للأكراد إن قالوا
لنا حق التنفس والحياة»
ونقول بعد الآن فلتحيا العروبة !!
٣
يا شهرزاد
الليل يفترس الصباح
وحقول كردستان.. موسمها جراح
الحب ممنوع.. وهمس الجار
لا شيء مباح
إلا دم الأكراد.. نفط الموقدين
مصباح عارهم.. بموت الآخرين
يا شهرزاد .
صدأت أساطير البطولة في لياليك الملاح
والذكريات البيض والمهر الذي ركب الرماح
والحب والأمجاد والسيف الذي ملَ الكفاح
عار على بغداد
ما فيها مباح !
إلا دم الأكراد
في المذياع.. في صحف الصباح
(...)
يا شهرزاد ..
الليل يفترس الصباح
والحب ممنوع

ومخدعك الوثير
ملقى على أقدام سيدك الحقير
ودماء كردستان تغرق سافحيها
واللاعب المأفون بالنيران
سوف يموت فيها .

ليس للكردي الا الريح
يَتَذكّرُ الكرديُّ حين أزورُهُ ، غَدَهُ ..
فيُبعدُهُ بُمكْنسة الغبارِ : إليك عنّي !
فالجبالُ هِيَ الجبالُ. ويشربُ الـثودكا
لكي يبقى الخيالَ على الحياد: أَنا
المسافرُ في مجازي، و الكراكيُّ الشقيَّةُ
إخوتي الحَمْقىَ. وينفُضُ عن هُويَّتِهِ
الظلالَ: هُوِيَّتي لُغتي. أنا.. و أنا.
أنا لغتي. أنا المنفيّ في لغتي.
وقلبي جمرةُ الكُرْديِّ فوق جبالِهِ الزرقاء ../
نيقُوسْيا هوامِشُ في قصيدته،
ككُلّ مدينةٍ أخرى. على درّاجةٍ
حمل الجهاتِ، وقال: أَسْكُنُ أَينما
وَقَعَتْ بيَ الجهةُ الأخيرةُ. هكذا
اختارَ الفراغَ ونام. لم يَحْلُمْ
بشيء مُنْذ حَلَّ الجِنُّ في كلماتِهِ،
(كلماتُهُ عضلاتُه. عضلاتُهُ كلماتُهُ)
فالحالمون يُقَدِّسون الأمسَ، أَوْ
يَرْشُون بوَّاب الغد الذهبيِّ..
لا غَدَ لي ولا أمسِ. الهُنَيْهَةُ
ساحتي البيضاء../

منزله نظيف مثلُ عَيْن الديكِ ..
منسيٌّ كخيمة سيّد القوم الذين
تبعثروا كالريش. سَجَّادٌ من الصوف
المجعَّد. مُعْجَمٌ مُتآكل. كُتُبٌ مُجَلِّدةٌ
على عَجَل. مخدّاتٌ مطرَّزَةٌ بإبرة
خادم المقهى. سكاكينٌ مُجَلَّخةٌ لذبح
الطير و الخنزير. فيديو للإباحيات.
باقاتٌ من الشوك المُعَادِلِ للبلاغةِ.
شُرْفَةٌ مفتوحةٌ للاستعارة. ها هنا
يَتَبادَلُ الأتراكُ والإغريقُ أدوارَ
الشتائم. تلك تَسْلِيَتي وتَسْلِيَةُ
الجنود الساهرين على حدود فُكاهةٍ
سوداء../
ليس مسافراً هذا المسافرُ، كيفما اتَّفَقَ..
الشمالُ هو الجنوبُ، الشرقُ غَرْبٌ
في السراب. ولا حقائبَ للرياح،
ولا وظيفة للغبار. كأنه يُخفي
الحنينَ إلى سواهُ، فلا يُغنِّي .. لا
يُغَنيِّ حين يدخُلُ ظلُّه شَجَرَ الأكاسْيا،
أو يبلِّلُ شَعرَهُ مَطَرٌ خفيفٌ..
بل يُناجي الذئبَ، يسأله النزالَ :
تعال يا ابن الكلب نَقْرَعْ طَبْلَ
هذا الليل حتى نوقظ الموتى. فإنَّ
الكُرْدَ يقتربون من نار الحقيقة،
ثم يحترقون مثل فراشة الشُّعَراء/
يعرفُ ما يريد من المعاني. كُلُّها
عَبَثٌ. وللكلمات حيلَتُها لصيد نقيضها،

عبثاً. يفضّ بكارةَ الكلمات ثم يعيدها
بكراً إلى قاموسه. ويَسُوسُ خَيْلَ
الأبجدية كالخراف إلى مكيدته، ويحلقُ
عانَةَ اُللُغةِ : انتقمتُ من الغياب.
فَعلْتُ ما فعل الضبابُ بإخوتي.
وشَوَيْتُ قلبي كالطريدة.لن أكون
كما أريد. ولن أحبَّ الأرض أكثر
أو أقلَّ من القصيدة. ليس
للكرديِّ إلاّ الريح تسكنُهُ ويسكُنُها.
وتُدْمِنُه ُويُدْمنُها، لينجوَ من
صفات الأرض والأشياء ../
كان يخاطب المجهول: يا ابني الحُرّ !
يا كبش المتاه السرمديّ. إذا رأيتَ
أباك مشنوقاً فلا تُنْزِلْهُ عن حبل
السماء، ولا تُكَفِّنْهُ بقطن نشيدك
الرَّعَوِيَّ. لا تدفنه يا ابني، فالرياحُ
وصيَّةُ الكرديِّ للكردي في منفاهُ،
يا ابني .. والنسورُ كثيرةٌ حولي
وحولك في الأناضول الفسيح.
جنازتي سريَّةٌ رمزيّةٌ، فَخُذِ الهباءَ
إلى مصائره، وجُرّ اسماءك الأولى
إلى قاموسك السحريِّ. واحذرْ
لَدْغَةَ الأمل الجريح، فإنه وحشٌ
خُرّافيٌّ. وأنت الآن .. أنت الآن
حُرّ، يا ابن نفسِكَ، أنت حُرٌّ
من أبيك ولعنة الأسماء../
باللغة انتصَرْتَ على الهُوِيَةِ

قُلْتُ للكرديِّ، باللغة انتقمتَ
من الغيابِ
قال: لن أَمضي إلى الصحراءِ
قُلْتُ ولا أَنا..
ونظرتُ نحو الريح/
- عِمْتَ مساء
- عمت مساء!

شهادات

محمود درويش نفتقدك

حسين حبش

كنَّا نعلِّق صورته بجانب صوَر أحمد خاني وجكرخوين وشفان بَرْوَر وتشي غيفارا...

تبــدأ علاقتــي بمحمود درويش منذ الطفولة، من الكتب المدرســية تحديــداً. وأتذكر أن بعض هذه الكتب كانت تحتوي على قصائد جميلة وبســيطة له، كنا نقرأها بحبٍّ وبراءة متناهية. ومن جملة تلك القصائد، أتذكر تحديداً هذان المقطعان من قصيدة يقول فيها:

إنّا نحبّ الورد لكنّا نحبّ القمح أكثر

و نحبّ عطر الورد لكن السنابل منه أطهر

وأتذكــر أيضاً أنه كان في حــوش دارنا في القرية حديقة ورد كبيرة وواســعة، تزيِّن الدار وتملأ المكان برائحــة العطــر الزكية. حديقة كانت أمي قد غرســتها بيديها وســقتها بقلبها، لذلــك كان انحيازي الطفــولي للــورد أكثر منه للقمح. فكنت أحرِّف المقطع الأول من المقطعين الســابقين تلقائياً، بحيث أجعله هكذا: إنّا نحبّ القمح لكنّا نحبّ الورد أكثر. كنت أفعل ذلك، ربما لتحبني أمي أكثر أو ترضى عنــي، لا أدري. منذ ذلك الحين، وكلما ذُكر اســم محمود درويش أمامــي عبقت رائحة الورد في كلِّ مكان، وانتعشت المخيلة بالعطر وذكريات الطفولة.

ثم فيما بعد في مرحلة الفتوة والشـباب بدأنا نقرأ له قصائد ودواوين كثيرة ومختلفة أقرب إلى مزاجنا اليسـاري والثوري أنذاك! دواوين من قبيل أوراق الزيتون وعاشـق من فلسـطين والعصافير تموت في الجليل وحبيبتي تنهض من نومها وأحبك أو لا أحبك وتلك صورتها وهذا انتحار العاشـق ومديح الظل العالي... هذه الدواوين شكَّلت بالنسبة لنا زاداً ثورياً ونضالياً، ألهمتنا الكثير من العنفوان والأمل والإيمان بالحيـاة والمسـتقبل، وأن الغد ـ بطبيعة الحال ـ سـيكون أجمل وأبهـى! أي « لا غرفة التوقيف باقية ولا زرد السلاسـل..» بمعنـى آخر أننا حين كنا نقرأ في ذلك الوقت لمحمـود درويش، كنا نجد في طيَّات حروفه هذا الشـبه الكبير بين مأساته ومأساتنا، ألمه وألمنا، معاناته ومعاناتنا، قضيته وقضيتنا، فلسطينه وكردسـتاننا... لذلك أحببناه بعمق، شـاعراً متمرِّداً ثورياً مناضلاً مقاوماً وعاشقاً لشعبه ووطنه. أحببناه أخاً وصديقاً كبيراً، نقرأ له بحماس منقطع النظير، نتابع حوارته ونتقصى أخباره من هنا وهناك.

ولا بـدَّ لي أن أذكـر في هـذا المقام أنَّ البعض منَّا لم يكن يتردَّد لحظة بوضـع صورته إلى جانب صور أحمد خاني وجكرخوين وشفان بَرْوَر وتشي غيفارا... محبة وتقديراً. لكن رغم هذه المحبة الغامرة والتقدير الكبير، لم نكن ننسى عتابنا له، متسـائلين: أين هي قصيدتك المسـماة «كردسـتان»؟ لماذا اختفت من كل طبعات دواوينك يا محمود؟ هل من سرٍّ وراء ذلك؟ والتي تقول في مطلعها: معكم/ معكم قلوب الناس/ لو طارت قذائف في الجبال/ معكم عيون الناس/ فوق الشـمس تمشي لا تبالي/ معكم عبير الأرض/ من خصر المحيط إلى الشمال/ معكم أنا... أمي... أبي/ وزيتوني وعطر البرتقال/ معكم عواطفنا... قصائدنا/ جنود في القتال...

ربما في هذه المرحلة من أعمارنا لم نكن نقرأه شاعراً باتقان، أو ربما قرأناه بإتقان أقل. ربما كنا نبحث عن ضالة أخرى في الشعر غير الشعر. ربما لم نكن ندري أن للشعر فتنٌ ومواجع أخرى تقع أبعد قليلاً عن أحلامنا الساذجة بتغيير العالم نحو الأفضل وتحرير الأرض والإنسان!

أما فيما بعد، أو فيما يمكن تسـميته بفترة النضوج واتسـاع الخبرة والتجربة والقـراءات التي تعمَّقت أكثر فأكثر، فإنَّ رؤيتنا للشـعر وأسراره قد تغيَّرت كثيراً. فبتنا نقرأ محمود درويش وغيره من الشـعراء شـعرياً، شعرياً فحسب، دون أي حمولة ثورية أو نضالية أو أفكار خارجة عن شجون وشؤون الشعر ومشاغله، حتى ولو كانت هذه الحمولة ظلَّت باقية وموجودة في بعض القصائد. وأعتقد أن محمود درويش أيضاً قد أحدث تغييراً عبقرياً كبيراً وطفرة هائلة، نوعية ونادرة في شـعره قلما اسـتطاع غيره من الشـعراء فعل ذلك. فمنذ ديوانه أحد عشر كوكباً الذي صدر في بداية التسـعينات من القـرن المنصرم مروراً بدواوينه الأخرى الكبيرة كديوانه لماذا تركت الحصان وحيداً وسرير الغريبة ولا تعتذر عما فعلت وكزهر اللوز أو أبعد وأثر الفراشـة الذي أعتبره شـعراً خالصاً خلافاً لما ورد على غلافه من حيث تسـميته باليوميات وصولاً إلى ديوانه الأخير لا

أريد لهذه القصيدة أن تنتهي الذي صدر بعد رحيله. ولن ننسى كتابه النثري الفذ ذاكرة للنسيان. ولأنَّ هذه الكتابات والدواوين العظيمة مسَّــت في أعماقنا ما هو جوهري وأســاسي، فكان لها وقع السِّحر علينا وعلى ذائقتنا الشــعرية والجمالية والمعرفية. وما زال لهــا تأثيرها البالغ ليس علينا فقط، بل أكاد أقول على أغلب الشعراء في العالم. محمود درويش نفتقدك شاعراً عظيماً وملهماً. فرغم أنَّ الرِّيح، حتَّى الرِّيح ليست لنا، فلنا قصائدك الخالدة، فمن يستطيع أن يحجبها عن أرواحنا وقلوبنا؟

النسر الذي ارتفع ولم ينخفض

آخين ولات

كان يكفي أن أدرك من خلاله أن الشــعر كائنٌ خرافي لا يدركه ســوى أبنــاء الجن، حتى أتعلّق وأنا مراهقــة بمقهاه الصغير الذي هو كل الحب، لأصل وأنــا الحالمة أن « ليس للكردي إلا الريح» فأترك المقهى أرضاً وأسابق العاصفة.

كــما المطر لا يخطىء حاجــة الأرض له، كذلك هي عدالة القضايا لا تخطىء قط في إنجاب العمالقة ـ الاستثنائي.

محمود بركات وسليم درويش، هكذا كان يتحد هذان الرمزان لدينا كما عدالة القضيتين، الفلسطينية والكردية، وهكذا صرنا نقتدي بكتاباتهمامســحورين بعوالمهما التي لم تكن لتشــبه عالمنا الصغير في شيءٍ سوى خيطٍ من الضوء رفيعٌ ومشرق، أفضى بنا إلى هذا الكائن العاصي الأليف الذي هو الشعر.

أنا لاعب النرد أربح حيناً،

وأخسر حيناً.

أنا مثلكم أو أقل قليلاً.

كم كان لوقع هذا المقطع الصغير، من أثرٍعظيمٍ في منحى كتابتي مثلاً !!!

وكم تخيّلت حصانه المتروك وحيداً، لا ينتظر أحداً سوى «دينوكا» سليم بركات، وكم كان الوقت ضيقاً لنستطيع فهمهما كما يجب!

ربما هو الجرح، الذي جعلنا نبقي على قيد إبداعهما المســتفيض، أو شيءٌ آخر أكثر بلاغةً من الوجع، أو ربما هي غواية شياطين الشعر...

ويبقى عملاقا الشعر من أجمل ما أضاءت كلماتهما عتمة نفوسنا مذ عرفنا أن للكلمة ممراتٍ سرية لن يدركها سوى من يخلص في حبه لأبناء القضايا العالقة والجان والخرافة.

«يتذكر الكردي حين ازوره، غده..

فيبعده بمكنسة الغبار:

إليك عني، فالجبال هي الجبال

ويشرب الفودكا لكي يبقى الخيال

على الحياد: أنا المسافر في مجازي،

والكراكيّ الشقية إخوتي الحمقى.

وينفض عن هويته الظلال:

هويتي لغتي أنا، وأنا..

أنا لغتي. أنا المنفي في لغتي.

وكان هذا المقطع كافياً جداً بالنسبة أيضاً لاختيار الهجرة الطوعية نحو اللغة ملاذاً وملجأً وصومعة.

«على دراجةٍ حمل الجهات وقال:

أسكن أينما وقعت بي الجهة الأخيرة.»

العمق الدرويشي الذي كتب به هذا المقطع، واســتفحال الوجع الكردي فيه كان كافياً أيضاً لإقناعي بأنْ لا يشعر بالوجع ويبدع في وصفه سوى أبناؤه البارون.

ألف شــمعة يضيؤها شــعر محمود درويش الســاكن فينا أبداً، ونحن نجاهد للانفصال عن عتمات روحنا نحو الشمس.

نحو النسر في تحليقه الأبدي.